- ١٤ -

معركة مؤتة

فى جمادى الأولى سنة ثمان، جهز النبى ﷺ جيشا مكونا من ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة زيد بن حارثة ليتوجه نحو الشام ومجابهة الروم.. وتلك المعركة التى عرفت فى التاريخ باسم معركة مؤتة.. كان أمر النبى ﷺ أنه إذا أصيب زيد أن يتولى القيادة جعفر بن أبى طالب، وإذا أصيب جعفر يتولى القيادة عبد الله بن رواحة.. وإذا أصيب ابن رواحة فليرتض المسلمون بينهم رجلا يجعلونه أميرا عليهم..

وقد اختلف الرواة فى هذه الحملة.. أرجعها البعض إلى أن السبب يرجع إلى شرحبيل بن عمرو.. وكان عميلا للروم فى الشام قتل (الحارث ابن عمير) رسول رسول الله إلى أمير بصرى..

وأرجعها البعض الآخر، إلى أن النبى عليه الصلاة والسلام كان قد أرسل خمسة عشر رجلا إلى ذات الطلح وهى فى الشمال ناحية الشام، وكان سبب إرسالهم دعوة الناس فى هذه المنطقة إلى الإسلام، ولكنهم قتلوا جميعا ولم ينج غير رئيسهم.

واستعد الجيش للرحيل، وانضم إلى هذا الجيش خالد بن الوليد الذى عرفه التاريخ الإسلامى فيما بعد قائدا من أعظم قادة التاريخ..

وودعهم النبى ﷺ ومعه صحابته.. وقد بكى عبد الله بن رواحة وهو يودع النبى ﷺ..

وسئل ابن رواحة عما يبكيه فقال:

- أما والله ما بى حب الدنيا ولا صبابة بكم، ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله عز وجل، يذكر فيها النار:

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم: ٧١].

فلست أدرى كيف يكون الصدور بعد الورود..

وقد أوصى رسول الله ﷺ الجيش بألا يغدروا ولا يغلوا وألا يقتلوا وليدا، ولا امرأة ولا شيخا فانيا، ولا راهبا فى صومعته، وألا يقربوا نخلا، أو يقطعوا شجرا، أو يهدموا بيوتا..

وسار الجيش فى طريقه نحو الشام بعد أن ودعهم الرسول الكريم ونزلوا فى معان بالشام.. وكانت أنباء هذا التحرك قد وصلت إلى هرقل فجهز لهم جيشاً قوامه مائة ألف مقاتل فى رواية، وضعف هذا العدد فى رواية أخرى.. وفكر المسلمون بعد أن علموا أنهم سيواجهون جيشا ضخما لا طاقة لهم به.. فكروا أن يبعثوا للنبى فى المدينة يسألونه ما ينبغى عليهم أن يفعلوه.. ولكن ابن رواحة قام فخطب فيهم، وأشعل فيهم الحماسة، وأنصتوا إليه وهو يقول لهم:

-« يا قوم والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أمرنا الله به، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين: إما ظهور وإما شهادة »..

واقتنع الناس بضرورة القتال رغم قلة عددهم.. وكان جيش هرقل قد زحف بتخوم البلقاء، فاتجه المسلمون نحو قرية اسمها (مؤتة) ..وتهيأ المسلمون للقتال.. وجعلوا على ميمنتهم رجلا من بنى عذرة اسمه قطب ابن قتادة وعلى ميسرتهم رجلا من الأنصار اسمه عباية بن مالك .. والتقى الجيشان، وكان القتال رهيبا قاسيا.. وظل يقاتل زيد حتى سقط شهيدا فحمل الراية جعفر بن أبى طالب.. وكان يعرف تماما أنه سوف يستشهد فى هذه المعركة..

كان يشم رائحة الجنة، فركب فرسه، وخاض المعركة.. ودخل بين الصفوف يقاتل بضراوة، حتى أن فرسه لم يستطع المضى إلى الأمام وسط

زحام الجنود فنزل عن فرسه وعقرها وأخذ يحارب براية رسول الله . .حتى إذا هوى سيف على يمينه فقطعها، أخذ الراية بشماله، فضربه الأعداء فقطعوا يده اليسرى، فاحتضن الراية بعضديه !!حتى قتل . .وكان فى الثالثة والثلاثين من عمره !

وحمل الراية عبد الله بن رواحة، وقد تردد فى أول الأمر قليلا ثم عاد فاقتحم المعركة حتى قتل . .

وأخذ الراية ثابت بن أرقم أخو بنى العجلان. . فقال للناس:

- يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم. .

فلما طلب منه الناس أن يقودهم رفض القيادة، فاتفقوا على أن يقودهم خالد بن الوليد. . وكانت هذه هى المرة الأولى التى يقود فيها خالد بن الوليد جيشا من جيوش المسلمين. .

وهنا ظهرت عبقرية خالد العسكرية. . لقد قاوم العدو مقاومة باسلة، حتى إذا ما أظلم الليل، أعاد ترتيب جيشه. . وغير من ترتيب الجنود. . ثم طلب من بعض جنوده أن يذهبوا بعيدا فى مؤخرة جيشه. . ومهمتهم أن يثيروا كثيرا من الغبار، والصياح والضوضاء، حتى يظن العدو أن هناك مددا قد جاءهم من المدينة، فيبث فى قلوب أعدائه الرهبة والخوف.

وجاء الصباح. . وشاهد العدو جيش المسلمين. . ورأى على البعد الغبار والجلبة والصياح. . وشاهد الجيش يتقدم بشجاعة منقطعة النظير. فأيقن العدو أن مدداً من المدينة قد جاء يقوى عضد المسلمين . .ثم شاهد خالد ابن الوليد يتقهقر بجيشه فظنوا أن هذه خدعة من القائد العربى يحاول بها أن يوقع صفوف الروم فى شباك قد نصبها لهم. . فلم يتقدموا وراءه. . وكانت خطة خالد أن يعود بجيشه سالما إلى المدينة حتى لا يهلك عن آخره فى معركة يفوقه العدو عددا وعتادا. . وكانت خسارة المسلمين فى هذه المعركة اثنى عشر شهيدا !

وشاهد الناس فى المدينة النبى ﷺ فى اليوم التالى للمعركة حزينا.. لابد أن فى الأمر شيئا أحزن الرسول.. إنهم يريدون أن يعرفوا ما الذى أحزنه.. وصمت الناس.. وصوت النبى الكريم ينقل إليهم ما حدث فى مؤتة!

- أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قتل شهيدا.. ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قتل شهيدا..

ثم صمت الرسول حتى تغيرت وجوه الأنصار، وأخذوا يتطلعون إلى كلمات النبى ﷺ، فإذا به يقول لهم:

- ثم أخذها عبد الله بن رواحة، فقاتل بها حتى قتل شهيدا.

ثم قال: لقد رفعوا إلى الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب، فرأيت فى سرير عبد الله بن رواحة ازورارا عن سريرى صاحبيه.. فقلت عم هذا؟ فقيل لى: مضيا وتردد عبد الله بعض التردد ثم مضى..

وذهب النبى إلى بيت جعفر بن أبى طالب، وطلب من زوجته أسماء بنت عميس أن تأتى بأبناء جعفر وتشممهم وذرفت عيناه بالدموع..

وسألته أسماء إن كان قد حدث لزوجها شئ، فأخبرها الرسول باستشهاد جعفر، وخرج النبى إلى أهله قائلا:

- لا تغفلوا آل جعفر أن تضعوا لهم طعاما فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم..

وزارهم عليه الصلاة والسلام بعد ذلك بثلاثة أيام، واستضافهم فى بيته ثلاثة أيام، وقال لابنه عبد الله:

- هنيئا لك أبوك يطير مع الملائكة فى الجنة..

وأقبل خالد بجيشه إلى المدينة، واستقبله الرسول ﷺ.. وكان الناس يرون فى انسحاب خالد من المعركة هزيمة، وجرح فى قلب المسلمين، فاستنكروا عليه ذلك، وقابلوا جيشه بقولهم:

- يا فرار.

ولكن الرسول العظيم قال لهم:

- ليسوا بالفرار، ولكنهم الكرار إن شاء الله..

وقد لقب النبى ﷺ خالد بن الوليد بسيف الله اقتناعا منه بموهبته، ومقدرته العسكرية الفائقة.. وكانت عودة جيش مؤتة فى جمادى الآخرة من السنة الثامنة الهجرية..

* * *

obeikandl.com